

هجرة المرأة المغربية بين الرواية والسينما (فيلم فاطمة نموذجاً)

أ/ الطيب ولد العروسي
باحث من باريس (فرنسا)

أحاول في مداخلتي هذه التطرق إلى فيلم صدر حديثاً في أكثر من مائة قاعة عرض سينمائية فرنسية، واقتبس من عمليين إبداعيين للكاتبة المغربية (فاطمة الأيوبي)، عبر المحاور التالية:

- 1- استهلال
- 2- سيرة فاطمة الأيوبي، وكتابتها
- 3- الاقتباس السينمائي في عملي فاطمة الأيوبي
- 4- المحاور التي تطرق إليها المخرج السينمائي (فيليب فوكون)
أ- المرأة بين الواقع المعيش: في فرنسا، والثقافة الأصلية
ب- الأم وحوار الأجيال
ت- دور أب البننتين
- 5- الكتابة كسلاح لتحقيق الذات
- 6- خلاصة

استهلال:

لقد استوحيت السينما الكثير من الأعمال الروائية مثل "الحرب والسلام" لدوستيوفسكي، و"البؤساء" لفكتور هيغو، و"ثلاثية" نجيب محفوظ و"الحريق" لمحمد ديب، وغيرها من الأعمال الروائية التي تحولت إلى أفلام عرّفت بقضايا اجتماعية وثقافية على مستوى عالمي، وبعضها الآخر بقضايا الاندماج في

المجتمعات الأوروبية، علما أنّ هذه الأعمال تمّ نقلها إلى السينما، ولم تكتب خصيصا لها، فكيف يتم هذا الاقتباس؟ وما هي جدلية العلاقة بينهما؟
تثير هذه العلاقة الكثير من الجدل حول من استفاد أو استلهم أكثر من الآخر: "هل الرواية استفادت من السينما أكثر؟، أم هو العكس الذي حدث؟، وهل السينما انتعشت وازدهرت بفضل استلهاها من الرواية¹، وتوظيفها لأجواء وعوالم روائية تقتبس منها، وتحولها إلى فيلم، وتنقل الحياة والتفاصيل التي على الورق إلى حياة وتفاصيل من أضواء وألوان ومشهديات مختلفة".

هذا ما نحاول التطرق إليه في هذه المداخلة المتواضعة، التي خصصناها لفيلم "فاطمة" الصادر أواخر سنة 2015، على شاشات السينما الفرنسية، والذي استلهمه المخرج الفرنسي المغربي (فيليب فوكون)² من عمليّ الكاتبة المهاجرة³ (فاطمة الأيوبي): "صلاة القمر - Prière à la lune"، الصادر في باريس، عن منشورات بشاري عام 2006، و"أخيرا.. يمكنني السير بمفردي - enfin je peux marcher toute seule" الصادر في باريس لدى نفس الناشر، سنة 2010.

هذا الفيلم مقتبس من حياة هذه الكاتبة، وسيرتها، حيث اهتم ببعض قضايا الهجرة المسكوت عنها، وعن آمال الجيل الأول من المهاجرين، وتعامل المتلقي والمشاهد مع هذه التيمات؟ خاصة في الظروف الصعبة التي تمرّ بها حياة المهاجرين، وسط صعود الإسلاموفوبيا (التي يطلق عليها العاملة) المؤججة لنيران العنصرية، علاوة على ما يحدث في شوارع العالم العربي الإسلامي من مأساة ومذابح ترتكب باسم الإسلام، الذي هو بعيد عنها كلّ البعد، لكنها كرّست الصور

¹ - السينما والرواية (علاقة تأثير وتأثر)، جريدة النصر، بتاريخ 29 جوان 2015.

² - فيليب فوكون Philippe Faucon، مخرج سينمائي من مواليد وجدة بالمغرب، في (26 جانفي 1986)

³ - كتب الكثير من المهاجرين من الجيل الأول آلامهم وآمالهم؛ سجلوا فيها صفحات هامة من نضالهم، ومن معاناتهم الجسدية والنفسية. ولقد صدرت مجموعة من الأعمال، عالجت صفحات مختلفة من حياتهم، مثلا العمل الذي قام به (الطاهرين جلون) حول مسألة العزلة، بعنوان: "أقصى درجات العزلة". ينظر: الطاهرين جلون: دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، 1981. كما نجد - أيضا - عند مؤسس "سوسيولوجيا الهجرة والافتراق": عبد المالك صياد (1933-1998).

النمطية التي تروج لها وسائل الإعلام الفرنسية، والكثير من الأحزاب، والجمعيات اليمينية المتطرفة، ولذا فإن نجاح أطفال المهاجرين يعد تنويجا رائعا للتربية التي يتلقونها في بيوتهم، وفي الأوساط التي يعيشون فيها. خاصة وأن ظاهرة الطلاق قد انتشرت في أوساط المهاجرين، مما ترك الأم تتكفل بتربية الأولاد، وتكافح من أجل أن تنجو بهم إلى بر الأمان، هذا البر المزعزع بالأشواك، والتحديات.

2- سيرة فاطمة الأيوبي، وكتاباتهما:

فاطمة الأيوبي: امرأة مغربية مهاجرة، تزوجت بمهاجر وعدها بالعيش "في الجنة"⁴، حينما تصحبه معها إلى فرنسا، غير أنها تفاجأت بصعوبة الحياة، سواء في السكن أو في مخاطبة الناس؛ لأنها لم تكن تتقن اللغة الفرنسية، ومما زاد في الطين بلّة هو: لا مبالاة زوجها، الذي عوض أن يشجعها على تعلم اللغة الفرنسية، والتأقلم بشكل جيد مع الحياة الجديدة، "أقفل" عليها كل المنافذ، وراح يعيش صحبة معارفه، وتركها وحيدة بين جدران البيت، تنتظر قدومه من العمل، وذهابه إليه، مما زاد صعوبة في وتيرة الحياة، حتى حدث الطلاق الذي كان بمثابة الصاعقة على فاطمة، لأنها لم تكن تخرج من بيتها، وتتعامل مع الفرنسيين.

لقد اضطرتها حياتها الجديدة، وهي مطلقة، إلى الخروج، بحثا عن عمل يعينها على تربية أولادها، فعملت خادمة في بيوت الفرنسيين، وبعض الشركات، لتكتشف الاحتقار والمذلة والعنصرية؛ إذ كانت تعوض هذا النقص، وذلك العنف العنصري بالكتابة باللغة العربية، التي وجدت ضالتها فيها، حينما كانت تخلو إلى نفسها، فألفت كتابين يمتزج فيهما الشعر والقص والخواطر.

⁴ - تذكرني هذه الكلمة في رواية للكاتب الجزائري المهاجر (إبراهيم بن عيشة)، تحت عنوان: "الحياة في الجنة"، حيث استطاع أن يكون نموذجا للنجاح، لكونه تخرج من المدرسة العليا للمحاسبة، سمحت له بتقلد مناصب مهمة، كما حصل على رتبة هامة في رياضة "الجيدو"، حيث مثل فرنسا في العديد من المحافل الدولية (تتميز عناوين أعمال الكثير من الكتاب المهاجرين بالسخرية من أوضاعهم، ومن المواضيع التي يعالجونها، لأن الحياة، أو العيش في الجنة، هي مسيرة لشاب ولد في صحراء الجزائر، ووعد والده بأنه سيذهب إلى باريس، ويعيش في شقة هادئة وجميلة، فوجد نفسه في البيوت القصديرية لمدينة (نانتير)، التي قضى فيها أكثر من 15 سنة). ينظر: إبراهيم بن عيشة: دار الحكمة، الجزائر، 2013.

هذان الكتابان جذبا انتباه المخرج السينمائي المعروف (فيليب فوكون)، الذي اقتبس منهما فيلم "فاطمة"، الذي يحمل اسمها، والذي أعطى راجا كبيرا لكتاباتها ولمعاناتها، وبالتالي لمعاناة الكثيرات مثلن، من اللواتي يعشن على هامش الحياة، ولا تثير أي اهتمام يذكر. "وتعتبر فاطمة الأيوبي المغربية مثالا يحتذى به لكل النساء الفقيرات في العالم، حيث عمدت الظروف على هجرها للدراسة، وذلك لفقر والدها الشديد، وعجزه عن تعليمها بجانب إخوتها الثلاثة، حيث ضحت "فاطمة" لأجل إخوتها، وتركت المدرسة وهي صغيرة"⁵.

ألفت فاطمة الأيوبي - كما ذكرنا - كتابين: الأول: بعنوان: "صلاة القمر"، والثاني: "وأخيرا.. يمكنني السير بمفردي"، يؤرخان لسيرة حياتها، وهما مليئان بالقصص الشيقة، والتجارب الحياتية الثرية، وفي نفس الوقت، تعتبر لسان حال أولئك النسوة اللواتي يعشن مجهولات، وهن يكافحن يوميا من أجل مستقبل أحسن لأولادهن.

3- الاقتباس السينمائي في عملي فاطمة الأيوبي

هناك الكثير من وجهات النظر حول موضوع "علاقة السينما بالرواية"، فلا شك أن المخرج، حينما يعجب بعمل روائي، فيما أنه يقدم العمل كما هو؛ أي: يعطيه إلى كاتب سيناريو، ليحول أحداثه إلى فيلم، وهنا يستعين السينمائي بالروائي مما يطلق عليها "الرؤية من الخلف"، والتي تعني: "الصفحة الأكثر تداولاً في السرد الروائي الكلاسيكي،" حيث يتم وصف كل العناصر المكونة له وصفاً كلياً، سواء على المستوى الخارجي أو الداخلي، فالسارد - هنا - يكون على معرفة شاملة بمكونات العالم الروائي، الذي يقوم بإنجازه، وغالباً ما تشبه عينه - هنا - بعين كاميرا ماسحة لكل شيء تلتقي به، إلا أن هذه العين السردية تستطيع الوصول إلى الأعماق، في حين تظل عين الكاميرا مركزة على السطح"⁶.

⁵ - فاطمة الأيوبي.. ملكة النظافة، ترجمة: يوسف وهباني، صدر بتاريخ: 27 سبتمبر 2006، ينظر الرابط: <http://www.lahaonline.com/articles/view/11276.htm>

⁶ - تقنية الرواية بين الرواية والسينما- نور الدين محقق. ينظر الرابط: http://www.aljabriabed.net/n75_04mohakikl.htm

وهناك شكل ثان، وهو ما يطلق عليه "الرؤية المصاحبة"، والتي تعني: "صيغة أصبحت معروفة في السرد الروائي الحديث، فالسارد فيها لا يكاد يتجاوز معرفة الشخصيات التي يقدمها، إنه يسير في موازاة معها، يصف ما تراه، ويحدده انطلاقاً مما تبصره"⁷.

أما مخرج فيلم "فاطمة"، فإنه تجاوز المكتوب فنياً، "وأضاف إليه شيئاً جديداً من داخله، وهذا هو النوع الوحيد الذي يستحق اسمه بالفعل لأنه يأخذ من (الرواية) حكاية أو صورة، أو فكرة ليطورها بطريقة سينمائية، ويفتح إمامها العديد من إمكانيات الاقتباس"⁸، فقد اهتم المخرج بحياة ثلاث نساء يعشن تحت سقف واحد، تربطن علاقات مختلفة مع فرنسا، ومع اللغة، ومع المجتمع (يقول الكاتب بأنه وجد في كتابات فاطمة الأيوبي "ما ذكرني بوضعي الشخصي، وفيه نتعرف كيف كانت الأم تتحدث وتتواصل مع بناتها، من خلال تدوين ملاحظاتها الشخصية في مفكرة صغيرة، حيث كانت تكتب بالعربية ما يتعذر عليها قوله بالفرنسية)، كونهن لا يتقن غيرها، لذا نرى الرغبة في التواصل بينهن على الرغم من الفرق في اللغة"⁹.

لقد تم الاقتباس بكل حرية - كما يؤكد على ذلك المخرج، وأغلب النقاد الذين كتبوا عن الفيلم - للتعبير عن وضع المرأة المهاجرة، ليتطرق إلى ثلاث نساء من نفس العائلة، ولكن كلّ واحدة منهن تختلف عن الأخرى، ففاطمة الأم في الأربعينيات من العمر، وإلى الحب الأموي دون حدة أن ننسى مشاكل الاندماج في فرنسا، ومشكلة الأحياء، فبدون قلق ودون عنف، وبحب وحنان، كل شيء حقيقي في هذا الفيلم، حقيقي جداً، ووقور جداً، مثل حب أم لأولادها، وهو موضوع عالمي، فعن طريق

⁷- نفس المرجع

⁸- مناقشات .. السينما والرواية.. التباس العلاقة، الميلودي شغموم، جريدة الاتحاد الاشتراكي، يوم: 2009/12/04.

⁹- فيليب فوكون: «فاطمة» يذكّرني بوضعي الشخصي.- غسان خروب.- جريدة البيان، بتاريخ 12 ديسمبر 2015

فاطمة (بطلة الفيلم والكاتبة) نكتشف عالم من لا صوت لهم، وعن قوة "لغنتهم اليومية، والحي الذي يريد منع بنتي فاطمة من الوصول إلى آمالهما"¹⁰.
واصل المخرج - عن طريق هذا الفيلم - الاهتمام بقضايا الهجرة المعقدة، وبنفض الغبار عن آلاف مثل فاطمة اللواتي يعانين الإهمال، ويعشن غريبات في المجتمع الفرنسي، ويكافحن بصمت من أجل مساعدة أسرهن. وكما أكد المخرج إلى جريدة البيان بأن "الكتاب ذكره بوضعه الشخصي، مشيراً إلى أنه حساس لهذا الموضوع، كونه ينتمي إلى عائلة مهاجرة بالأصل"¹¹، وربما هذه المرة الأولى التي تكرر السينما الفرنسية فيها فيلماً لنساء الظل المهاجرات اللواتي لا يراهن المجتمع الفرنسي، واللواتي يعملن بإصرار وعناد لتأمين مستقبل أفضل لأولادهن.
"لقد اتجهت السينما للاستفادة من الروايات التي تطرح هذه القضايا، مثل: روايات نحيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ويوسف إدريس، ويحيى حقي، وتحولها إلى أفلام سينمائية حققت رواجاً كبيراً بين رواد السينما، ثم وسعت دائرة القراءة، وذلك بإعادة طباعة هذه الروايات عدة طبعات، وبهذا كسبت السينما والرواية مكاسب مشتركة ونجاحات متعددة"¹².

4- المحاور التي تطرق إليها المخرج السينمائي فيليب فوكون:

قدم الفيلم ثلاثة أجيال من النساء من أصول مغربية، تربطن علاقات مختلفة مع فرنسا، ومع اللغة، ومع المجتمع. وتتميز الأم بالشجاعة، وهي تعمل لضمان مستقبل بنتها، فأما "فاطمة" الكاتبة، فهي من رجيل المهاجرين الأوائل، لا تعرف الفرنسية بشكل جيد، وأما "بنتها"، فولدتا وترعرعتا في فرنسا، ونالتا حظاً من نظام التعليم الجمهوري.

بنى المخرج (فيليب فوكون) فيلمه على هذه الفكرة؛ ليقدم عملاً جلب انتباه النقاد، حين استطاع أن يحكي عن هجرة المرأة من شمال أفريقيا، وعن دورها

¹⁰-Fatima- la critique du film , du 07/10/2015, voir le lien :<http://www.avoir-alire.com/fatima-la-critique-du-film>

¹¹- فيليب فوكون: «فاطمة» يذكّرني بوضعي الشخصي.- غسان خروب.- جريدة البيان، بتاريخ 12 ديسمبر 2015

¹²- الرواية العربية والسينما: إشكالية الأدب والهوية في السينما العربية.- تحقيق خليل الجيزاوي.- مجلة الرافد

والجوانب المسكوت عنها في حياة المهاجرات، والطريقة التي يتحدثن، ويتصرفن بها في الحياة اليومية. وبهذا، يدخل بنا إلى عوالم المرأة المهاجرة، التي قدمت الكثير من المعجزات بالإضافة إلى صراعها مع الحياة والتقاليد، وإصرارها على نجاح أولادها. يجمع الفيلم بين الواقعية والتنميق.. بتقديمه حالات مشتركة وهامة. مما يثير تساؤلات حول انتقال العائلة وأصولها (أعرف من أين أتيت)، وطموحاتها ومستقبلها في السلم الاجتماعي (إلى أين تريد أن تذهب). وتمكّن المخرج من تجاوز الصفات الاجتماعية لفيلمه قبل الشروع في تقديم مجموعة من الجوانب الخفية عن المشاهد الفرنسي والغربي، بلغة الفكاهة والتحدي.

تجدر الإشارة إلى أن فاطمة الممثلة هي غير محترفة في مجال السينما، بل إن ظروف الحياة أجبرتها على تتبع نظام معين في حياتها اليومية، بهدف مساعدة أسرته، كما يبين بأن الدور التي قامت به، يتماشى مع معاناتها، وهمومها، وانشغالاتها اليومية.

أ- المرأة المغربية بين الواقع المعيش والثقافة الأصلية¹³:

تريد الأم الآتية من الوطن، والمشبعة بتقاليده وثقافته، أن توصل إلى بنتها بعض الأسس المهمة مثل: سماحة الدين الإسلامي، وتفتحه على الغير، وعالميته، بتصرفاتها اليومية، وبارتدائها الحجاب الذي زاد في تعميق حذر الآخر (الفرنسي) منها، كونه يربطه مباشرة بالأحداث التراجيدية التي يمارسها ذوو العقول الضيقة، والتي لا ترقى إلى رسالة الإسلام السمحة، تضاف هذه الأحداث إلى الخطاب العنصري، الذي يزيد في الطين بلة، علاوة على انتشار البطالة، والكثير من الآفات الاجتماعية الأخرى، فكيف تحاول الأم أن تجد طريقا للحوار مع ابنتها، ولمنعها من الوقوع في مخالف العنف، أو التطرف، أو الضياع؟

¹³- لقد عبر عالم الاجتماع الجزائري عبد المالك صياد عن التدحرج بين بلد الهجرة والبلد الأصلي بالغياب المزدوج ، لأنه تناول الظروف المعيشية للمغتربين الجزائريين في فرنسا وخصص لها عدة كتابات أصبحت مرجعية. وشرح هذا الغياب في كتابه المميز:
- Abdelmalek Sayad.- La Double Absence. Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré.- Paris ; les éditions points.- 2014

تقوم فاطمة بعملها اليومي، الذي يجعلها تخرج مبكرة، وتعود في ساعة متأخرة من الليل، لأنها تعمل ساعات في أماكن متفرقة، لكي تتحدى واقعها، وتحقق الأمل الذي عجزت على الوصول إليه، تعلم بنتها، وأملها أن تدخلها إلى أهم الجامعات، والفروع العلمية. وهذا ما تحقق فعلا مع (نسرين)، البنت البكر، البالغة من العمر "ثمان عشرة سنة، والتي نجحت في الامتحان الذي يخول لها تتبع دراسة الطب.

يخصص المخرج مجموعة من المشاهد في الجامعة لنسرين، وهي تمتحن، وتعيش مفارقات بين رؤية أمها تتعب وتتحدى الصعاب، وأختها (سعاد) البالغة من العمر "خمس عشرة سنة"، والتي تعيش في حالة ثورة غير مرتبة، كونها تمرّ بفترة المراهقة الصعبة، تفعل ما تريد، وتتكلم كلاما جارحا مع أمها: "أنت لا أحد يحترمك.. تستغلين خادمة في بيوت الفرنسيين".. تتعبين بدون جدوى.. لا كرامة لك.. أنا لم أعد أطيعك"، هذه التصريحات الموجهة، وغيرها، تبين الشخ الهائل بين الأم والبنتين، تتعب "فاطمة" من أجلهما، وتقاوم عنصرية البيوت الفرنسية، تعمل بدأب متواصل داخل البيت، وخارجه، سعيا إلى إسعادهما. ثم يأتي مشكل "اللغة"، فيزيد في هذا الشخ، وفي عذاب الأم، لأنها كانت تسمع تلك الكلمات من صاحبة البيت التي تعمل عندها، تطلب من بنتها أن تشرحها لها.

يبدأ الفيلم بمشهد (نسرين)، في صحبة أمها وأختها، بحثا عن بيت للإيجار، فتعلل صاحبة البيت رفضها بأنها "نسيت المفاتيح، وأنها ستتصل بهن لاحقا، وتبرّر (فاطمة) عدول صاحبة البيت عن التأجير بـ "غطاء رأسها"، ومشهد تلك المرأة البورجوازية الفرنسية التي تركت - عمدا - "عشرة يورو" في البنطلون الذي تقوم فاطمة بتنظيفه؛ لتتأكد من أمانتها، وفعلا، تأتي فاطمة إلى السيدة، وترد إليها النقود، وهي تقول لها بأن ولدها يكون قد نسها في جيبه، أو مشهد أم صديقة ابنتها في المدرسة، عندما توجه إليها فاطمة الحديث في الشارع، فتزعج منها، وتسير بسرعة، تاركة فاطمة وراءها... إنها مشاهد باردة، في بلد يتصاعد فيه خطاب اليمين المتطرف يوما بعد يوم.

وبالمقابل، نرى غيرة نساء العي، وتديرهن لمكائد واهية لبنتها، مما سبب ل (نسرين) غضبا كبيرا، استطاعت تحديه بعد حديثها مع والدتها التي حثها على الاهتمام بدراستها فقط، ولا تهتم بالباقي، لأنها تعرف وشوشات بعض الجارات

وغيرتهن من نجاح نسرين، خاصة وأن فاطمة - هي الأخرى - لا تملك الوقت للحديث مع جاراتها، أو الخروج معهن، كونها تريد أن توفر لبنيتها كل وسائل النجاح، فكانت تحثهما - دوماً - على التحلي بالأخلاق الحميدة، والمحافظة على القيم الجيدة. أو كما كانت فاطمة الأيوبي الكاتبة تقول، وتؤكد: "أريد أن تكون المرأة في الفيلم رائعة، فخورة، كريمة، رغم الاختلاف (اختلاف العادات والتقاليد)، تحترم فرنسا، وتؤمن بمستقبل ممكن"¹⁴.

تعيش (فاطمة) صعوبة التواصل مع بنتها، مما جعلها، بالإضافة لما تقدمه لهما يومياً تضحيات وتحديات، أثناء عملها المضني، وعبر محادثتهما اليومية، وأيضاً، قد تلطفها - أحيانا - بتحضيرها تلك المأكولات المغاربية، لبنتها، وهذا ما نراه، حينما تزور بنتها (نسرين)، في الحي الجامعي، تحمل إليها أطباقاً عربية، تعكس العلاقة الرمزية مع "الوطن/ الهناك". ويحدث أن تختلي (فاطمة) بنفسها عند المساء، حينما تجد الوقت، لتدوّن لبنتها بعض ما تفكر فيه، أو ما تريد أن يسيرا عليه، مما يسمح لها سلطة التحرك ضد وضعها.

ب- الأم وحوار الأجيال:

من خلال حياة فاطمة اليومية، نراها تتعايش مع جيلين: جيل (نسرين)، التي أبت إلى أن تواصل دراستها في الطب، عازفة عن كل المغريات، التي ما فتئت صديقاتها يغرينها بها، كالخروج، في أيام آخر الأسبوع للرقص، أو لمصاحبة الشباب، وهذا يحسب لـ (الكاتبة)، ولـ (المخرج)، الذي قدم لنا عائلة تعيش حياة اغتراب بفعل "اللغة"، كون الأم لا تفهم كل ما يقال أمامها، ولم يقدم حالات العنف التي كانت "موضوعة" خصبة لكثير من الأفلام والكتابات، التي راحت تصور "حالات الانغماس في المخدرات، وحالات الاغتصاب التي تحيا من خلالها الشخصيات، حيث تظهرها، وكأنهم محكوم عليهم بالحياة في هذا الواقع الأليم"¹⁵.

يقدم هذا الفيلم المفعم بالأمل، وبحب الخروج من المواقف الجاهزة، عبر شخصياته، أبعاداً إنسانية عميقة، نلمسها في مواقف شخصية (فاطمة)، حين

¹⁴ - Faimaelayoubi.- Prière à la une.- Paris: Bachari.- 2006, page 80

¹⁵ - السينما الأوروبية وموقفها من هجرة العرب! - أحمد عاطف، جريدة الأهرام بتاريخ 10 أكتوبر 2015.

وجدت الحلّ في أن تبقى قريبة من بنتها، تحرص على دراستها وتربيتها التربية الجيدة، تحاول تعمل اللغة الفرنسية حتى تستطيع حلّ ألغاز كلام ابنتها (سعاد) المتمردة على كلّ شيء، لتتكلّم بلغة جيلها ولغة الأحياء "الفيرلون"¹⁶.

لقد مثلت الأم الخيط الرابط بين الأجيال، في الاحتفاظ على العادات والتقاليد، وفي الحوار الدائم بين البنيتين المولودتين في فرنسا، واللّتين تملكان معطيات مغايرة، هي من إفرازات الواقع الفرنسي المعيش. ومن خلال هذا الرابط القائم بين هذه الأسرة الصغيرة، ومحاولات الأم الحريصة على تماسكها، رغم المواقف المعارضة المتمردة من (سعاد)، حين تكلمها بلغة أهل الضواحي، تلك اللغة الغريبة عن الأم، فنسمع الأم، تقول لها، بطريقة غير مباشرة، وعن طريق كتابتها بالعربية، التي تستعيد من خلالها كرامتها: "يجب أن تكوني فخورة من كل الفاطمات"¹⁷.

إنّ فاطمة تلعب دورا مهماً، وإنّ كان صامتا، لربط البنيتين بها وربطهما ببعضهما، وبوالدهما، لكي يحافظا على توازن الأسرة. وهو ما يعكس كفاح الكثير من الأمهات المهاجرات، وتعلقهن بنجاح أولاهن. هذا ما نشاهده في آخر الفيلم، حين تعلن نتائج (نسرين) الدراسية، وتعلق على حائط الجامعة، إذ تحضر الوالدة/ فاطمة مع ابنتها¹⁸، وهي تتبع عيني ابنتها على الأوراق المعلقة، لتصرخ نسرین فرحة مسرورة برؤية اسمها، مما انعكس، بشكل مؤثر على والدتها، التي تنفست الصعداء، وهي تشهد اللحظة التي من أجلها ضحّت هذه التضحية العظيمة.

ورغم ذلك، نراها تعود، في آخر لقطة من الفيلم، لتتأكد، مرة أخرى، وهي تقرأ النتائج بأم عينها، وتضع سبابتها على اسم بنتها المثبت في الأوراق، وكان المخرج يعلن بأنها لم تصدق نفسها، وأنها، بنجاح ابنتها، تكون قد حققت ذاتها.

¹⁶ - خليط بين العربية والفرنسية، يتميز بقلب الكلمات والمنتشر كثيرا في الأحياء التي يسكن فيها أبناء المهاجرين، يوظفونها فيما بينهم.

¹⁷ - Faimaelayoubi.- Prière à la une .- Paris: Bachari.- 2006, page 6

¹⁸ - تجدر الإشارة هنا، إلى أنها كانت الأم الوحيدة التي صاحبت ابنتها لمعرفة نتائج الامتحانات

ت- دور والد البنيتين (نسرين) و(سعاد):

خصص المخرج أهم الأدوار لفاطمة، ولبنيتها، وللنساء اللواتي خالطتهن في عملها، أو في الحي الذي تسكن فيه، حيث إنه أخرج النساء من الظل، ليبرز أدوارهن الحقيقية في الحياة، ولذا، بينما كان الرجال الذين أظهرهم الفيلم قليلون. توقف المخرج لحظات قليلة عند "أستاذ الجامعة"، الذي كان يعطي دروسه في كلية الطب، أو أثناء الامتحانات لما كان بعض الأساتذة يحرسونها، كما نرى لقطة في الحافة التي كانت تنقل نسرين إلى الجامعة، بعد قضائها عطلة نهاية الأسبوع، وهي منكبة على مراجعة دروسها، إذ يكلمها شاب، يحاول أن يلهمها عن مراجعاتها، إلا أنها تتجاهله، على الرغم من أنها كانت ترغب في قرارة نفسها أن تحدثه.

وهكذا، "تم تقليص دور الرجال في أدوار ثانوية جدا، منها دور الأب الذي نراه في متجر للأحذية، وهو يهيم بشراء حذاء رياضة لابنته (سعاد)، وهو يحثها على الجانب الأخلاقي: "يجب أن لا تتحدثي مع والدتك بعنف!".

أما بالنسبة للمراهقين الشباب، فقد كانت لهم أدوار غير فعالة، بل كانت أقرب إلى "التهريج"، فلم تكد تخرج عن دور إغواء الفتيات، أو البحث عن الصديقة، باستثناء فتى وحيد، يقع في حب (نسرين)، يتميز بروح الدعابة التي يبدو أنها كانت تناسب الفتاة، ومع ذلك، فقد حافظت الفتاة على مسافة الاحترام وهامش الحرية¹⁹.

أما (الأب)، فإننا نراه في ثلاث لقطات: الأولى: عندما يلتقي (سعاد) ليقتني لها حذاء الرياضة، والثانية: مع (سعاد) أيضا، حينما تكون معه في السيارة، وتطلب منه أن يعلمها السياقة، وأثناء ذلك، يكلمها على سواعد المهاجرين الذين بنوا تلك الأحياء، والمؤسسات، والبنيات الكبرى التي تزخر بها فرنسا.

أما اللقطة الثالثة: فنرى الأب مع ابنته (نسرين) التي زارها في غرفتها، في الحي الجامعي، وراح يتناقش معها حول أفضلية الرجل عن المرأة، فبقيت ترد على حججه بطريقة أكثر منطقية وصلابة، لأنه كان يريد منها أن تكون مثل غيرها من النساء في بعض البلدان العربية، تكمل دراستها وتزوج، وتنجب، لكنها أبت إلى أن

¹⁹ - Le film Fatima de Philippe Faucon sublime les luttes d'une femme, publié le 23 octobre 2015, voir le lien : <http://www.unidivers.fr/cinema-film-fatima-philippe-faucon/>

تقول له حقيقة ما تفكر به، وأن العالم تغير، والمرأة تساهم في بناء المجتمع مثلها مثل الرجل، ينتظر منها الكثير، ولم تذهب إلى الجامعة لتبقى مكتوفة الأيدي أو تنجب الأولاد فقط.

كل هذا يمر في جو مليء بالدفء، لأن أمها توصيها بالالتقاء مع والدهما، وكان هذا الأخير يحرص على أن تكون بنتاه في قمة الاحترام مع أمهما، ويوصيها خيرا بها، ويسمعا كلامها ويطيعاها، ولما كان قد تزوّج من امرأة أخرى، كان يلتقي مع بنتيه في فضاءات عامة، فلم يصحبهما إلى بيته الجديد. في كثير من الحالات، عندما يغيب الأب عن البيت، يعيش الأطفال دمارا كبيرا، حيث ينعكس ذلك على النتائج المدرسية، ذلك أنّ تربية النشء المسلم، في بلد المهجر، لا تخلو "من تعقيدات ومشاكل، على اعتبار الصعوبات التي تكتنف الموازنة بين متطلبات الاندماج في المجتمعات في بلد المهجر من جهة، والمحافظة على الخصوصيات الثقافية والدينية والاجتماعية للفرد العربي المسلم من جهة أخرى"²⁰.

5- الكتابة كسلاح لتحقيق الذات:

تجدر الإشارة إلى أن (فاطمة)، بطلة الفيلم "انهارت ذات يوم، ووقعت على الدرج، من كثرة التعب، وبقيت طريحة الفراش لمدة طويلة، ولم يستطع جسدها مقاومة الإرهاق، وضغط العمل الرهيب، حيث أصيب بشلل نصفها الأيسر، ومن حسن حظها، أنّها التقت بطبيبة حنونة، تدعى (ماري بيزي)، ساندتها مساندة فعالة، خلال مرحلة علاجها الطبي، جعلتها، بمعاملتها الطبية، تلحق بقطار الحياة من جديد، كما ساعدتها على تعلم اللغة الفرنسية بصورة علمية، حيث غدت تتكلمها دون أن تكتبها.

كانت فاطمة تقرأ على صديقتها الطيبية ما كانت تكتبه في أماسيها، بعد خروجها من عملها المرهق، أو حينما يتيسر لها الوقت للكتابة، وهنا، تلتقي بناشريتكمّن من

²⁰- دور النوادي الرياضية والثقافية في ترسيخ اللغة العربية عند الجالية العربية بالمهجر حالة التلميذ المتمدرسون بأوروبا.- د/ كرفس نبيل، د/ زعبار سليم، د/ بومنجل جمال الدين معهد التربية البدنية والرياضية، جامعة الجزائر 3، الجزائر. أنظر الرابط: http://www.alarabiahconference.org/uploads/conference_research-1726598203-1409301863-728.pdf

نشر عملها اللذين وجدا ترحابا كبيرا عند القراء، وبعد أن تمت ترجمتهما إلى اللغة الفرنسية، وقعا العملان في يد مخرج، استطاع أن يستوحي منهما فيلم (فاطمة)، حين تعلّق بهما، ورأى أن ما تضمنته صفحاتهما يتطابق وسيرتها الذاتية، وكفاحها ضد التغيب والجهل الشخصي، خاصة عند انتسابها إلى المدرسة، قصد تعلّم اللغة الفرنسية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، اهتمامها بتربية بنتها، والسهر على تنشئتهما التنشئة الحسنة"، ذلك أنها كانت تعمل بعناد، لمتابعة دراسة ابنتها، ومساعدة ابنتها الكبرى (نسرين) ماديا، لدعمه في دراستها الجامعية. ومن هنا، بدأت تكتب يومياتها، باللغة العربية، في دفترها الخاص، فتسجّل كلّ ما لم تستطع قوله بالفرنسية لبنتها²¹.

تؤكد الكاتبة (فاطمة الأيوبي) على أن الفيلم أخرجها من النسيان، فكان اعترافا ضمنيا بدور الكثيرات ممن يشيّهنّها". حيث رسم الفيلم صورة صادقة لآلاف "الفواطم".

وهكذا، فازت النساء - أخيرا - بالحق في أن تظهرن على شاشة السينما. ومشاهدة الفيلم الذي وجد قبولا حسنا في مهرجان (كان) وعرض في عدة قاعات سينمائية. لقد أعطى صورة جميلة لما أسمّيه "الديمقراطية الثقافية"²².

لقد اعتبرت الكاتبة، في كتابها: "صلاة للقمر"، عن فرحتها، وسرورها بلجوها إلى الكتابة، التي تعبر عن رغبة جامحة، كانت لديها منذ صغرها، إذ عبرها حاولت أن تنسى آلام جسدها، الذي راجعت من أجله العديد من الأطباء، فكانت "الكتابة" تحقيقا للذات، لأنها سلاحها الذي تلتجئ إليه في أوقات الأمل والألم، ثم جاء الفيلم، ليزيد من تحقيق ذاتها، إحساسا بالنصر، لها ولكل من يمتن مثل عملها.

²¹- Un film de Philippe Faucon voir le lien ; <http://rhone-alpes-cinema.fr/fr/film-fatima.html>

²²-« Fatima », un grand film qui regarde la France droit dans les yeux.- de Olivier De Bruyn, voir le lien ; <http://rue89.nouvelobs.com/rue89-culture/2015/10/03/fatima-grand-film-regarde-france-droit-les-yeux-261480>

من أجل مواصلة الحياة بكرامة وشرف. واحتفاء بنجاح بنتيها، وتوفيقهما في حياتهما، بعد المخاوف، والتعب، والمعاناة.

كان اللجوء إلى "الكتابة" بمثابة اكتشاف "القمر"، الذي يضيء لياهما، وهي تسجل يومياتها: "وتحدثت فاطمة عن كتابها "الصلاة في ضوء القمر"، حديث امرأة عرفت الحياة بكل ما تحويه من معاناة، وألم، وصبر، وحب، وعطف.

لقد صفق لها الطلاب كثيرا، واحتفلوا بهذه المرأة العظيمة، وقدم لها الناشر "بشاري" هدية، هي ثمرة النجاح الكبير الذي وجده كتابها، حيث نفذت الطبعة الثانية، وسوف يعمل على تحقيق الطبعة الثالثة²³، مما يبين أن "الكتابة" أصبحت ملاذها الوحيد للخروج من الدائرة الحلزونية: عمل، تنقل، نوم، وأيضا، من انعكاسات وهموم المرض. إذ تمثل الكتابة سلاحها الوحيد للخروج من دائرة النسيان، ومن نكران الآخرين، الذين يضعونها في خانة "منظفات البيوت"، ومن أوجاع عدم إتقانها اللغة الفرنسية، التي بقيت حاجز بينها وبين التواصل مع ابنتيها، وهي مفارقة تعيشها الأسر المهاجرة، ناهيك عن مواجهتها حقد الجارات، وغيرتهن من نجاحها في تربية ابنتيها، وتمكينهما من مواصلة تعليمهما العالي، كما يثير الفيلم العقبات التي واجهتها في مجتمع غريب عنها، بوصفها المهاجرة والمواطنة غير الأصلية.

6- خلاصة:

يطرح فيلم (فاطمة) تساؤلات كثيرة حول مكانة المرأة المطلقة المولودة في "الهناك/ البلد الأصلي"، التي لا تعرف اللغة، ولا تحسن مخاطبة الوسط الذي تعيش فيه، مما سبب لها عنفا من المقربين إليها، مثل ابنتها سعاد، وهو عنف ناتج عن غضب حقيقي من اللا عدالة التي تعيشها الأسر المغاربية، ومفارقة صارخة بين "خطاب" يؤمن لها مكانتها - نظريا -، وبين واقع حارق يتطلب منها تحديات، إن كانت تريد - فعلا - البحث عن بديل يريحها ويريح بناتها.

هذا ما حاولت فاطمة "الممثلة" إيصاله، عبر الفيلم، علما أنها ليست ممثلة محترفة؛ فهي جزائرية، وعاملة نظافة. تؤكد ذلك بقولها: "لقد اكتشفت نص الرواية، والسيناريو، وعلى الرغم من تخوّفي، فقد قبلت هذا التجربة. في واقع

²³ - فاطمة الأيوبي...ملكة النظافة، ترجمة يوسف وهباني، - صدر بتاريخ 27 سبتمبر 2006، أنظر الرابط: <http://www.lahaonline.com/articles/view/11276.htm>

إنساني، يبحث عن الحياة الكريمة، بفخرواعتزاز. حيث يطرح المخرج، من خلاله، نظرتة حول الاندماج، ومشكلة الفجوة العميقة بين أجيال المهاجرين، وصعوبة المرأة المعزولة، العاجزة عن إيجاد مكان لها في المجتمع الفرنسيين ورغبتها في تأمين مستقبل أولادها"²⁸.

ذلك الذي سعي إليه هذا الفيلم، محاولة منه في تبين أن "السينما" هي الصورة المرئية المتحركة للرواية المكتوبة أو المقروءة، وقد خدمت الفن الروائي بأكثر مما خدمته الصحافة، وهذا ما تعترف به الكاتبة (فاطمة الأيوبي)، التي تؤكد بأن الفيلم شاهده آلاف الناس، كما يؤكد الناشر بأن الفيلم أعطى رواجاً كبيراً للكتاب، إذ بيعت منه أعداد كبيرة، اقتناها الكثير من الناس، من مختلف الشرائح الاجتماعية. وبدون شك، إن نهضة الفيلم السينمائي ستؤدي . حتماً . إلى نهضة الفن القصصي والروائي، حتى إنّ النقاد قد أجمعوا أننا نعيش "عصر الرواية"، وذلك كلّ، بفضل السينما. كما يؤكد ذلك الدكتور (هشام جعيط) بأن "العلاقة بين السينما والأدب قد أغنت الثقافة الكونية بكم كبير من الإنجازات والأعمال المتميزة، وبتراث ثريّ من النظريات والأفكار، التي أسهمت في تحديد خصائص كلّ منهما"²⁹.

المراجع:

1. إبراهيم بن عيشة: الحياة في الجنة، دار الحكمة، الجزائر، 2013.
2. الطاهر بن جلون: أقصى درجات العزلة، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، 1981.
3. Abdelmalek Sayad.- La Double Absence. Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré.- Paris ; les éditions points.- 2014
4. Faimelayoubi.- Prière à la une.- Paris: Bachari.- 2006

²⁸ - Fatima, quand une femme de ménage devient l'héroïne d'un film de Philippe

De Par Linda Belhaoues.- publié le 22/08/2014 voir le lien :

<http://culturebox.francetvinfo.fr/cinema/fatima-quand-une-femme-de-menage-devient-lheroine-dun-film-de-philippe-faucon-162045>

²⁹ - من منشورات بيت الحكمة: مؤلف جماعي حول التفاعل الجدلي بين الأدب والسينما، جريدة الصباح التونسية، بتاريخ 7 جانفي 2015

